الوراثة

من خطبة الاستاذ وليم باتسون رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني

القسم الثاني

تكلمتُ في القسم الاول من هذه الخطبة الذي القيتهُ في مدينة ملبرن على ما عرفناهُ حديثاً من خواص الاجسام الحية حسب ناموس منديل . واشرت الى قلة الادلة على كيفية نشوء الانواع بعضها من بعض والى انهُ لم يتم دليل صريح على ان هذا النشوء لا يزال جارياً الآن بدرجة كبيرة . والراسخ في الاذهان ان معرفة حقيقة الحياة ادق من ان يوصل اليها بالحدس والتخمين وما الحدس فيها الا كحدس الكيماويين الاقدمين في طبيعة العناصر . ولكن ما عُرف من امر الوراثة كاف للوصول الى نتائج عملية كثيرة ثابتة . ومرادي الآن ان اوضح بعض هذه النتائج في ما يتعلق بنوع الانسان

تكلمت في القسم الاول من خطبتي على بعض الحيوانات والنباتات التي تعيش معاً وتتزاوج وتتوالد وهي من اشكال مختلفة . وابنت ان اختلافها مبني على وجود بعض العوامل (او الاصول) الوراثية في الجراثيم التي تتولد منها او عدم وجودها . فان هذه العوامل ومركباتها تولد المميزات التي نراها في افراد النوع الواحد . ولا تظهر ميزة في حيوان او نبات الا اذا كانت عواملها قد وصلت اليهِ من ابيهِ او امهِ او منهما كليهما وقتما تلقحت البيضة او البزرة التي تكوّن منها ذلك الحيوان او النبات ولذلك لا يوصل والد الى نسلهِ شيئاً من الصفات وهي ليست فيهِ حتى يسوغ لنا ان نقول ان الصفات الجسدية والعقلية كالذكورة والانوثة واللون ومضاء الذهن والميل الى الامراض وطول العمر وقصرهِ وسائر الصفات التي تتباين فيها افراد الجماعات المختلطة تتعين كلها حينما يتم تلقيح البيضة . وبعض هذه الصفات يقوى او يضعف حسب المؤثرات الخارجية التي تؤثر في صاحبها فلا يخو بعضها ما لم تناسبهُ الاحوال والآبق كامناً كما ان الولد الذي لا يأكل لا ينمو . وكل احد يورث نسلهُ العوامل التي وصلت اليهِ من والديهِ ولا يورثهُ غيرها . واذا وصلت اليهِ من احد والديهِ لا منهما كليهما اورثها نصف نسلهِ في المتوسط . ولم ينتبه الناس الى هذه الامور قبلاً على بساطتها لان الولد يولد من والديهِ فلا يسهل ان يُعرف ما ورثهُ من كلٍ منهما . وهو يتكون اصلاً من جرثومتين تتحدان وتكوّنان جسمهُ وفي كل منها عناصر مختلفة تختلط وتمتزج حتى يصعب الاستدلال على كل منها على حدتهِ قبل ان تظهر نتائجها ولكن متى ظهرت نتائج امتزاجها صار الاستدلال عليها ممكناً

وقد غفل الناس عن هذه الحقيقة قبلاً لانهم كانوا يبحثون عن الانساب بالرجوع فيها الى الوراء فلو نظروا في صفة من الصفات في احد الناس او الحيوانات وبحثوا عن ظهورها في نسلهِ لاهتدوا الى ان معنى الوراثة هو ظهور بعض الصفات وعدم ظهور غيرها . وليس ذلك بالامر السهل من كل الوجوه لان صفات كثيرة تتعارض فيتعذر على الباحث استقصاؤها كما يظهر في تربية الحيوانات والنباتات

واوضح ما ظهر من امثلة الوراثة في الانسان ما كان منها متعلقاً بشواذ البنية والامراض الوراثية . اما سائر المزايا العادية التي تكون في السليمي البنية فالمعروف من امرها قليل حتى الآن . واوضح ما عُرف منها ما اثبتهُ هرست وهو انهُ اذا كان الوالدان اشهلي العيون لم يأتِ اولادهما سود العيون . وفي ما سوى ذلك لم يصل البحث حتى الآن الى نتائج مقررة من هذا القبيل ولكن الوصول اليها رهين الاستمرار على البحث

ظهر لبعضهم بالبحث في القمح انهُ قد يجتمع فيهِ كثير من العوامل المتماثلة وكلٌّ منها كافٍ وحدهُ لاظهار الصفة التي يدلُّ عليها ولا تكون هذه الصفة زائدة فيهِ بزيادة عواملها فقد تجتمع فيهِ ثلاثة من العوامل التي تسبب احمرارهُ ولكن حمرتهُ لا تزيد على حمرة ما فيهِ عامل واحد منها . وقد استعمل دفانبورت وغيرهُ من الباحثين الاميركيين هذه الحقيقة في التعليل عن الوان الخلاسيين المتولدين من تزوج البيض بالسود في اميركا . فان القاعدة في ذلك انهُ اذا تزوج خلاسي بخلاسية وكانا كلاهما في الدرجة الاولى اي ان كلاً منهما متولد من ابوين احدهما ابيض والآخر اسود وجب ان يجيء ولد من اولادهما اسود وولد ابيض وولدان خلاسيين ولكن الواقع ليس كذلك ويمكن تعليلهُ بان بعض العوامل تجتمع ولا يظهر لها فعل كما تجتمعت عوامل الاحمرار في القمح ولم تؤثر فيهِ ولكن لم يقم دليل على ذلك . والمرجح عندي ان سببهُ نقص في انفصال الاصول فيتألف من تزاوج الابيض بالاسود خلايا جرثومية لا اسود فيها وخلايا اخرى كلها سوداء وخلايا بين بين ولكن بمقدار الاسود والابيض فيها على درجات متفاوتة . وعندي انهُ لو احصي نسل الخلاسيين لوجدنا فيهِ اناساً يماثلون الاب واناساً يماثلون الام واناساً بين بين بعضهم اقرب الى الاب وبعضهم اقرب الى الام على درجات متفاوتة ولعل سبب ذلك تدرُّج انقسام الخلايا بين سرعة وبطء فيكثر انتقال العوامل او يقل . ومهما يكن السبب يبقى ما ذكرتهُ آنفاً صحيحاً وهو ان الحي لا يورث نسلهُ شيئاً لم يصل اليهِ

وقد وجدت امثلة تدل على ان لانتقال العوامل علاقة بكون الانسان ذكراً او انثى

مثال ذلك العمى اللوني والميل الى الزعاف او سرعة نزف الدم فان حاتين العلتين في الرجال اكثر منهما في النساء . اما العمى اللوني فابناء المصاب به لا يرثونهُ منهُ . (ما لم تكن امهم مصابة به) ولا يورثونهُ لاولادهم . وبعض بنات المصاب بالعمى اللوني او كلهن يرثن هذه الآفة ويورثنها لاولادهنَّ ولو لم تظهر فيهنَّ . ومن حيث انهنَّ ورثنها من احد والديهنَّ فقط فنصف نسلهنَّ يرثها . والصبيان الذين يرثون العمى اللوني تظهر فيهم هذه الآفة واما البنات اللواتي يرثنها فتنتقل بهنَّ الى اولادهنَّ ولو لم تظهر فيهنَّ . والرجال الذين لا يظهر فيهم العمى اللوني لا يورثونهُ لنسلهم ولو كان والدوهم مصابين به . وواضح من ذلك ان مراثيم الرجال المصابين بالعمى اللوني على نوعين النوع الواحد يدخل في توليد الذكور وهذا لا تنتقل به آفة العمى اللوني والنوع الثاني يدخل في توليد الاناث وهذا تنتقل به آفة العمى اللوني . وهناك ادلة على ان البيضة قد تكون مكونة ليتولد منها ذكر او لتتولد منها انثى . ولكن البحث في ذلك خارج عن موضوعي وقد ذكرت ما ذكرتهُ لان فيهِ شيئاً من التأييد للقول الشائع وهو ان الصبيان يشبهون امهاتهم والبنات يشبهن اباءهنَّ

اما شواذ الخلقة والامراض الوراثية فالامثلة على انتظام وراثتها كثيرة وارضح مثال على ذلك تفشي داء العشاوة في كورة قريب مونبليه في فرنسا ففي اهل تلك الكورة لا اقل من ١٣٠ اعشى وعشواء يتصل نسبهم جميعاً باعشى واحد حل فيهم في القرن السابع عشر وكل من ظهرت فيهِ العشاوة منهم كان احد والديهِ اعشى ولم تظهر العشاوة في احد وُلد من والدين صحيحي العيون

قيل ان الناس يولدون متساوين ثم ينشأ التفاوت بينهم باختلاف الاحوال التي يربون فيها . ولكن المعرفة بوراثة الامراض ووراثة المواهب تدلُّ على ان ذلك غير صحيح . وقد اخجل ذلك منذ نشر غلتون نتيجة ابحاثهِ في الوراثة حتى لم يبقَ مجال للشك وكان العلماء يحسبون مشابهة الاولاد لآبائهم واجدادهم من الامور التي تستلفت الانظار ولكن لا شأن للبحث العلمي فيها . ولولا اعتقاد غلتون ان كل عضو من الجسم يولد العضو الذي يقابلهُ سيفة الجنين ولولا معارفهُ الرياضية التي جعلتهُ يفضل الاحصاءات على التحليل والتجربة لا كتشف الحقائق المهمة في الوراثة التي عرفت بناموس مندل

كما اكتشف اكتشاف ينفع الناس مادياً يؤدي الى الانتفاع بهِ وبذلك زيدت سرعة النقل وسهلت المواصلات والمخابرات وكثرت الاطعمة فازداد عدد الناس . ويجب ان يكون للاكتشافات المبنية على ناموس مندل مثل هذه النتائج اذا انتُفع بها في تربية الحيوانات

والنباتات . ولكني اظن ان اكبر تغيير سنحدثهُ هذه الاكتشافات هو زيادة الرغبة في البحث عن طبيعة الانسان وطبائع الشعوب . ومتى علمنا ان توزع الصفات والاخلاق في البشر خاضع لقواعد مخصوصة فلا شك في ان نظرنا في الحياة وفي الآداب سيتغير وقد يعقب تغيرهُ تغيير عاداتنا الاجتماعية . ولا يمكن ان يكون التغيير في العادات الاَّ رجوعاً الى البساطة في الاكثر . ادعى فلاسفة القرن الثامن عشر الرجوع الى الطبيعة ولكن لم يخطر لهم ان يبحثوا عن ماهية الطبيعة . وقد ابعدوا عن الحقائق الفسيولوجية كثيراً في محاولتهم ان يجعلوا اساس القواعد الاجتماعية تساوي الناس عند ولادتهم . فالناس لا يولدون متساوين بل هم بعيدون عن ذلك كثيراً حتى ان الطبيعي ليعدهم في طليعة الانواع المختلطة التي تتألف من اشكال كثيرة تتزاوج وتتوالد سوية . لا بل ان سكان كل كورة من الشعب الواحد يتألفون من اشكال واصناف متميزة . فاذا اخذت مدينة من المدن الانكليزية مثلاً وعزلت بعض افرادها ونظرت الى نسلهم بعد بضعة اجيال رأيت فيهِ من الاشكال المختلفة ما يعدُّ بالمئات . ولكن رغماً عن ذلك ترى في المدن اصنافاً من الناس متميزين عن غيرهم لان الميل الغريزي واختلاف الطبقات الاجتماعية والمهن والازياء تفصل الناس بعضهم عن بعض على نوع ما

ويختلف اهل المدنية من الناس عن الحيوان والنبات من قبيل الوراثة في كثرة ما لديهم من الوسائل التي يستخدمونها لاستبقاء الاصناف الدنيا وذوي العاهات منهم . فيتزاوج افراد الطبقات الدنيا من غير وازع وكذلك ذوو العاهات الاَّ اذا كانت عاهاتهم تقتضي عزلهم في الملاجئ . وذوو العاهات من البشر كثيرون في جوار كل مدينة من المدن الكبيرة ملاجئ يمكنها مئات او الوف منهم وعشرات من الاصحاء الذين يقومون على العناية بهم . وحول لندن منطقة من الملاجئ فيها حوالي ٣٠٠٠٠ ذوو العاهات منهم نحو ٢٨٠٠٠ واكثرهم من نسل اناس مثلهم وقليل منهم من نسل الاصحاء . وعندي ان على كل احد ان يعضد العاملين على تحسين نسل البشر في بلاده وفي كل بلاد اخرى . ولكن جميات العاملين على تحسين النسل قلما تخلو من الميل الى العمل بالعادات المرعية صحيحة كانت او فاسدة ولو كان لها سلطة لقضت على كثيرين من الذين يمكن استبقاؤهم . وغلتون وهو مؤسس علم تحسين النسل لهُ كلام يؤخذ منهُ انهُ كان يعتقد ان ما لا بد من تلاشيهِ من اصناف البشر يجدر بالناس ان يعملوا على ملاشاتهِ سريعاً . وهذا خطأ فان ابا يتهورفن كان سكيراً وامهُ ماتت بالسل وقد جاء في انساب البشر الاولين ان ضاربي العود والمزمار وصانعي آلات النحاس والحديد كانوا من نسل قايين الشرير لا من نسل شيث الصالح

في وسع كل امة ان تختار نوع الافراد الذين تتألف منهم ويتم لها ذلك اذا عملت عليه في اجيال قليلة وسوف تعمل كل الامم على تحسين نسلها

يجب ان لا تقف الاوهام الدينية سداً في سبيل تحسين النسل . ترى الامم الاوربية الراقية تخلع التقاليد القديمة من الافكار والفنون وعلاقات افرادها بعضهم ببعض فهل يعقل انهُ متى مهّد لها العلم الوسائل لتقليل ما في الدنيا من الشقاء الكثير ولجعل الناس اسعد حالاً تعامى انها تتردد في الاستفادة من هذه الوسائل ؟ ان التنازع بين جماعات البشر لم يزل في طور البداية حتى الآن وسيشتد كثيراً لان القوى المخزونة في الارض صائرة الى النفاد . فسينفد الفحم الحجري الذي يسهل استخراجهُ في بلاد الانكليز مثلاً ويترتب عليهِ نقص كبير في السكان الا اذا اكتشف فيها مصدر جديد للقوة . قد اظهرت بعض الشعوب ان في وسعها نبذ كل تقليد والاستفادة من كل قوة جديدة يمكّنها منها العلم فهل تتردد في التخلص من ذوي العاهات اذا تيسرت لها وسائل التخلص منهم؟ ان الوسائل التي تمكن ذوي العاهات والطبقات الدنيا من البقاء كثيرة وهي تزيد كل سنة ولكن يجب ان يوقف العمل بها عند حد . وسوف لا ينقضي زمن طويل قبل ان تنفتح عيون الامم فترى عاقبة تسامحها بكاثر هذه « الآفات التي نشأت على طول السلم في سكون العالم »

يمكننا ان نمنع تكاثر البله وقد بدأنا بذلك في بلاد الانكليز . ولا محذور من منع تزوج الابله بالبلهاء اذ لا يولد لها ولد سليم العقل ولو كثر اولادها . ولكن يجب ان لا نقطع هذا الحد الآن في منع الزواج . وقد يكون بعض التأثير ايضاً لتغيير القواعد التي يسير عليها الاطباء . فمن القواعد المرعية عندهم ان يبذلوا كل ما في وسعهم لاطالة الحياة ولو كانت عبئاً على صاحبها . ولعلهُ كان لذلك وجه حينما كان تشخيص الامراض قاصراً اما الآن فاستبقاء طفل مصاب بمرض عضال حتى لا يؤمل لهُ هناء في حياتهِ ولا يرجى منهُ نفع مثل تعمّد التعذيب لمجرد التعذيب . واكثر الذين شاهدوا اطفالاً من هذا النوع يظنون ان حالتهم مما يستوجب الاسف ولكنهم يسألون اين يمكن رسم الحد الفاصل بين الاطفال الذين يجوز استحياؤهم والاطفال الذين لا يجوز استحياؤهم . والجواب ان بعض الجماعات المتمدنة سنت قوانين لمثل ذلك في جميع العصور ونجحت قوانينها في تقليل الجرائم والجنون

يأسف البعض لكثرة موت الاطفال غير مفكرين في ما يؤول اليهِ نوع الانسان لو عاش كثر الاطفال الذين يموتون . وينعى الكتّاب قلة المواليد في بلدان ضاقت على سكانها اذ عندهم ان الامة التي لا يزيد عددها زيادة كبيرة آخذة في الانحطاط وذلك غير صحيح .

ان عدد السكان لا يزيد ولا ينقص اذا كانت الاحوال عادية غير استثنائية . ومدة القرن وربع القرن الاخيرة التي زاد فيها عدد الناس كثيراً كانت استثنائية وقع فيها للانسان ما وقع للارانب في السنوات الاولى بعد ادخالها الى استراليا . فقد زاد الناس ما وصلوا اليه من السعة باستخراج الفحم الحجري واستثمار البلدان الجديدة وما ترتب على ذلك من تدفق الخيرات على اوربا وساعد على هذه الزيادة اكتشاف المواد المطهرة والمضادة للفساد . ولا شك عندي انهُ لو انتشر البشر في اليابسة على السواء لامكنهم ان يزيدوا كثيراً عما هم الآن ولكن ما دام توزعهم غير منتظم فلا بد من وقوف ازديادهم في كثير من البلدان

وقد زاد السكان في انكلترا حتى صارت زيادتهم بعد الآن داعياً للعناء لا للراحة . ولكن المرجح ان الجماعات الصغيرة الساكنة في البلدان الواسعة القليلة السكان هي على حق اذا اهتمت بتكثير عددها اذ قد يكون ذلك ضرورياً لنجاحها اما الذين يعيشون عشي في بلدان كثيرة السكان فيرون ان قلة السكان في البلاد خير من زيادتهم عماً تحملهُ . يقول ارباب الاحصاء اذا كان متوسط اولاد العائلة اربعة بقي عدد الناس على ما هو لان وفياتهم قبل البلوغ لا تزيد على خمسين في المئة ولكن هذه الوفيات آخذة في النقصان لازدياد الوسائل الصحية فيمكن انقاص هذا المتوسط عن الاربعة

ان عوامل نجاح الشعوب وفشلها هي في نظرنا اسباب فسيولوجية وقد قام تقدم الانسان على سلسلة منها تشبهُ الاسباب التي نتج عنها ارتقاء الحيوانات والنباتات الاهلية من الانواع البرية . فاذا ارجعنا كل تغير ظاهر الى تغير في الاصول فاي تغير في الاصول تم بهِ هذا التقدم في امتلاك ازمة الطبيعة وتسخيرها الذي نسميهِ تمدناً ؟ قد تم بوقوع تباينات جلُّها او كلها ترتبت على فقد اصول كانت تقيّد العقل . ولم يتم هذا التقدم تدريجاً ولا اشترك فيهِ جميع افراد الامم الراقية كما يظن . فالذين يؤثرون في تقدم المدنية قليلون جداً ولكن في وسع كثيرين ممن لا يختلفون عن اسلافهم في شيء من تركيبهم الفسيولوجي ان يسيروا سير اثر هؤلاء القليلين وينفعوا المدنية بالتوسع في ما اكتشفهُ غيرهم والاشتغال بهِ لولا الطباعة والكيمياء والبخار والكهربائية والجراحة الحديثة لكنا الآن على ما كنا في القرون الوسطى . وهذه الامور كلها ثمرات عقول قليلة نادرة . فدُر غلتون النوابغ بواحد في كل مليون من البشر ولكنهُ عدَّ بين النوابغ اناساً اشتهروا بامور لا تفيد شيئاً في تقدم العالم . ان من يكمل اجزاء آلة مخترعة او يبين طريقة الانتفاع بمعارف لم يُنتفَع بها قبلاً هو من النوابغ لان ذلك فوق متوسط القوى البشرية ولكن النوابغ الذين يكتشفون عوالم جديدة ومعارف جديدة

مثل نيوتن وباستور يندرون ندرة تفوق التصور . ولولا الوف قليلة منهم لكنا حتى الآن في العصر الحجري لا نعرف شيئاً عن المعادن ولا الحساب ولا الكتابة ولا الحياكة ولا صناعة الخزف

ويصح هذا القول ايضاً على تاريخ الفنون الجميلة فان الذين تظهر فيهم قوة الابتكار فيها قليلون جداً بل ان الذين يدركون جمال المصنوعات الفنية التي يعملها غيرهم ويرتاحون اليها هم فوق متوسط الناس . وما شذ عن ذلك الاّ الموسيقى اذ يظهر انها متأصلة في بعض الجماعات وموهبة الموسيقى من المواهب الفطرية التي تولد مع الانسان ويمكن تهذيبها وتقويتها بالتعليم والتمرين ولكن لا يمكن اكتسابها بوسيلة من الوسائل . والطريقة الوحيدة التي يمكن ان يصير بها الشعب الانكليزي كلهُ موسيقياً هي ان يكثر فيهِ ذوو المقدرة الموسيقية الى ان يمسي المحرومون منها قليلين لا يعتدُّ بهم . ويمكن ان تم فيهم هذه المقدرة باختلاط اهل وايلس بهم وعند ذلك تنفتح امامنا مسألة اخرى وهي هل الشعب الناتج من هذا الاختلاط هو الشعب الانكليزي

وقد قامت مسألة مثل هذه في الشعب اليوناني الحديث عموماً وفي اهل اثينا خصوصاً . فقد كان لاهل اثينا في القرن الخامس قبل الميلاد مواهب فنية يفوقون بها اهل اثينا اليوم وجميع الامم الراقية . فكان في وسع عامتهم ان تشهد تمثيل الرواية لاول مرة فتستريها ولا تفوتها نكتة من نكتها وان تنظر الى التمثال فتطرب للجمالهِ . وقد قدّر علماء الفرق بين الاثينيين القدماء وبيننا في توقد الذهن يعادل الفرق بيننا وبين الزنوج . ولم يحوال على الاثينيين الاّ اجيال قليلة بعد ذلك حتى انحطوا وذهبت مواهبهم . ولا نعرف كيف اكتسبوا تلك المواهب ولا كيف تأصلت فيهم ولكنَّ فقدانهم لها كان بتزاوجهم بين الارقاء المعتوقين والغرباء الذين حلّوا فيهم . وكانوا قبل ذلك ينقسمون الى عشائر ولا يكاد فرد من العشيرة الواحدة يتزوج في العشيرة الاخرى فضلاً عن الغرباء والارقاء

ولكن يجب ان لا يؤخذ من كلامي هذا اني اعدُّ اختلاط الشعوب سبباً لانحطاطها . فانا لا اعتقد بذلك بل عندي ان شعبنا الانكليزي اكتسب جانباً كبيراً من قوتهِ بتركيبهِ من بضعة عناصر . فقد يكون امتزاج الشعب بغيرهِ سبباً لارتقائهِ وقد يكون سبباً لانحطاطهِ تبعاً لطبيعة الشعوب التي تمازجهُ . وليس من شأني الآن ان انظر في دقائق هذه المسألة بل يكفيني القول ان هذا التمازج يترتب عليهِ تغيرات كبيرة في طبائع الشعوب

وسيقع مثل هذه التغيرات للشعب الاميركي في الولايات المتحدة الاميركية فان مهاجرة

الايطاليين وغيرهم من اهل البلدان الاوربية الجنوبية آخذة في الازدياد فيمتزج هؤلاء بالاميركيين وبعد جيلين او ثلاثة يتسع الفرق بين اهل الولايات المعروفة بانكلترا الجديدة وبين اهل الولايات الاخرى التي تكثر المهاجرة اليها

ان المؤرخين يردُّون التغير الذي وقع في اثينا الى الاحوال المعاشية والسياسية وسيعلمون التغير الذي سيقع في الولايات المتحدة بذلك ايضاً . وليس لهذه الاحوال تأثير يذكر في هذا التغير الاَّ اذا ساعدت بعض اصناف الشعب على ان يزيدوا اكثر من غيرهم . ومن هذا القبيل اضمحلال كثير من عائلات الاشراف في اوربا تجاه تكاثر طبقة الصناع والتجار . اما من يتخذ ارتفاع شأن هذه الطبقة وانحطاط شأن الاشراف دليلاً على ان تميّز الاشراف عن سواهم لم يكن لهُ مسوغ فيغلط

ان الاحوال الخارجية تساعد المواهب على الظهور ولكنها لا توجدها . فلولا كثرة العبيد في اثينا مثلاً لما تفرغ الاثينيون الى الآداب والفنون فنبغوا فيها ولكن غيرهم من الامم اكثر من العبيد وعاش في سعة ورخاء ولم يرتقِ ارتقاءهم

لا شك في غلبة الطبع على التطبُّع . فالاخوة الاشقاء ينشأون سوية في احوال واحدة ولكنهم يختلفون في الاخلاق والقوى بقدر ما يختلفون في الوجوه . ثم ان كثيرين من الدوابّ نشأوا في احوال تضاد نمو المواهب التي نبغوا فيها . ومربو الحيوانات والنباتات يعرفون ان الصنف الطيب قد يحط اذا لم تلائمهُ الاحوال اما الصنف الرديء فلا يأتي بنسل طيب مهما اعتني بهِ . واعتقاد علماء التهذيب والاقتصاد بان تحسين احوال المعيشة يحسّن طبائع الانسان مبني على الامل وحسن الظن لا على الاختبار . قد وضع المستر ادمند هولز وهو من القائلين بغلبة التطبُّع على الطبع كتاباً سماهُ « ما هو كائن وما يمكن ان يكون » قال فيهِ انهُ اذا زُرع بعض القمح في ارض طيبة وبعضهُ في ارض جدبة جاء الذي زرع في الارض الطيبة بغلة كثيرة جيدة ولم يجئ الذي زرع في الارض الجدبة الاَّ بغلة قليلة رديئة . والخوخ البري اذا زرع واعتني بهِ تحسّن كثيراً ولكنهُ لا يجني منهُ خوخ مثل الذي يجني من الشجر البستاني . وليس الامر على مثل ذلك في البشر فان ابناء العامة اذا ربوا التربية اللازمة لم يقتصر تحسنهم على ان يرقوا الى الطبقة العليا من العامة بل رقي منهم كثيرون الى الطبقات العليا التي فوق العامة . ولكن فاتهُ ان كلاً من القمح والخوخ البري نوع متأصّل قليل الاصناف يأتي نسلهُ مثلهُ اما الانسان فنوع مخلوط فيهِ اصناف كثيرة تتزاوج وتتوالد معاً . ففي اهل كل قرية افراد فيهم مواهب كامنة اذا ورثها نسلهم ووافقتها

الاحوال ظهرت وقد يكتسب بعض افراد القرية مواهب لم تكن في اسلافهم

ان فقد الاصول الناقعة الذي يرتقي به الحي من درجة الى اخرى كما تقدّم لا تعني عنهُ العناية بالطعام والتربية والوسائل الصحية . فان الانسان ينمو بعض النمو جسمًا وعقلاً اذا اعتني بهِ العناية اللازمة ولكن العناية لا تجعلهُ طويل القامة اذا كان قد ولد ليكون قصيراً ولا تكمّل مداركهُ اذا كان ناقص المدارك من جبلتهِ . والحكومات الراقية في هذا العصر تعمل على تعميم الوسائل التي تساعد كل فرد على تقوية مواهبهِ والوصول الى الطبقة التي تؤهلهُ لها هذه المواهب مهما كانت احوالهُ التي ولد فيها ولكن تعميم هذه الوسائل لا يجعل الناس على مستوًى واحد بل هو افضل وسيلة لتقوية الطبقات العليا واضعاف الطبقات السفلى

على الذين يسعون الى اصلاح الاجتماع البشري ان يهتموا بتقليل الفروق بين طبقات الناس وتصغيرها . اما محاولتهم ازالة هذه الفروق وجعل الناس طبقة واحدة فمن العبث . لم نرتقِ الى تمدننا الحاضر الاَّ بالتباين واختلاف بعضنا عن بعض وسنبقى مختلفين الى ما شاء الله . وسيزيد الاضطراب الاجتماعي الحاضر الى ان يبلغ حدًّا تحاول عندهُ الجماعات ان تساوي بين افرادها ولكن المساواة بينهم تظل اسمية لا فعلية وتزول سريعًا . وسبب الاضطراب الاجتماعي الحاضر ليس اختلاف الناس في قوامهم التي تولد معهم بل الحوادث الاجتماعية الكبيرة الجارية بين الطبقات المختلفة . فان التغيرات العظيمة الجارية الآن سهلت على الناس الخروج من الطبقة الواحدة والدخول في طبقة اخرى . واذا بقيت الاحوال على ما هي بضعة اجيال استقرَّ كل صنف من الناس في الطبقة التي تلائمهُ وعند ذلك يبطل الاضطراب

وسوف تزال اسباب الشكوى من النظام الاجتماعي لا بتعميم المساواة المطلقة بين افراد المجتمع ولا بتقوية الانانية اي حرص كل فرد على مصالحهِ الخاصة غير مبالٍ بما يصيب غيرهُ بل بوصول كل صنف من الناس الى المنزلة التي يؤهلهُ لها تأوُّهُ الفسيولوجي

ان الذين يشتغلون بالتجارة يربحون ربحًا طائلاً يفوق الفائدة التي يستفيدها البشر من تجارتهم اما الذين يشتغلون بالعلوم فلا يربحون ما يوازي اتعابهم او يقابل الخدمات التي يقومون بها . فهذا الفرق بين العلماء والتجار نشأ تبعًا لزيادة البشر زيادة كبيرة بسرعة ولا يمكن ان يدوم ولكن لا يمكن منع تجمع المال في أيدي بعض الناس لان ذلك يثبط همم فيقعدون عن الجد والاجتهاد الاَّ اذا تغيرت الغرائز البشرية عما هي الآن . ولكن ليس ما يمنع وضع الحدود لتجمع المال او تحديد الامتيازات التي يتمتع بها اربابهُ لكي يقل التفاوت بين ارباب المال وسواهم ويقرب النفع الذي يجنيهِ ارباب كل طبقة من النفع الذي تستفيدهُ

الجماعة منهم ويقرب ايضاً من القوى التي يبدلونها . وكل مثال على ذلك في جسم الانسان فان عمل كل عضو من اعضائه مرتبط بنمو الاعضاء الاخرى ومناسب لهُ

ان المسائل السياسية التي يقتضي حلّها معرفة الحقائق البيولوجية كثيرة ومنها مسائل التعليم والقوانين الجنائية وجميع فروع الادارة السياسية . فكثيراً ما تعرض لاهل السياسة مسائل يحكمون فيها في ما يمكن عملهُ او ما لا يمكن عملهُ لاحداث تغيير مطلوب في فرد مخصوص او في شعب بكامله ولا بد لهم في هذه المسائل من المعرفة بالحقائق البيولوجية

لا تعدّ المعارف البيولوجية من المعارف الضرورية لاهل السياسة والاحكام في الوقت الحاضر ولكن سوف يأتي يوم يضطر فيهِ المعلم والحاكم والمحامي والسياسي الى الاشتراك مع الطبيعي في معارفهِ التي تتعلق بفسيولوجيا الشعوب

عضد الدولة وملك الروم

عضد الدولة فناخسرو شاهنشاه بن بوَيْه اعظم ملوك بني بويه خلف عمهُ عماد الدولة سنة ٣٣٨ للهجرة (٩٤٩ للميلاد) ودوخ العراق ودخل بغداد وخُطب لهُ فيها واستولى على ملك بني حمدان . ذكر ابن الاثير وغيرهُ من المؤرخين ان عضد الدولة هذا ارسل القاضي ابا بكر محمد بن الطيب المعروف بابن الباقلاني الى ملك الروم في جواب رسالة وردت منهُ و يؤخذ مما جاء في ذيل تجارب الامم (كتاب التجارب لابن مسكويه والذيل لابي شجاع الصابي) الذي اكتشفهُ احمد باشا زكي سكرتير مجلس النظار في الاستانة واحضرهُ الى القاهرة ان عضد الدولة ارسل رسولاً آخر الى ملك الروم بما قبل يهِ من شروطهِ واسم هذا الرسول ابن شهرام فشرح ما وقع لهُ في القسطنطينية في بلاط ملك الروم شرحاً مستفيضاً وقد ابتناهُ هنا وعلقنا عليهِ بعض الحواشي اتماماً للفائدة مستعينين على ذلك بترجمة المستر امدروز والاستاذ مرجوليوث لهذا الشرح وبما لدينا من الكتب : —

« ذكر ما جرى بين عضد الدولة وملك الروم فيما تردد بينهما من الرسالة

كان سبب هذه الرسالة ما تقدم ذكرهُ من دخول ورد[1] الى بلد الاسلام فخاف ملك

(١) Bardas Sclerus هو قائد مشهور من قوّاد الروم اصلهُ من قوم وجها في آسيا الصغرى فتوفي شأنهُ واستولى على املاك الروم في آسيا وهدد القسطنطينية فعزلهُ باسيليوس الحكيم من قيادة الجيوش الشرقية . وحرف الباء منهُ بالهوناية مثل حرف V بالفرنسوية والانكليزية فعربهُ العرب واوّا وكتبوا الاسم ورد بدل برد واظنهم انهم كانوا يلفظون الواو حينئذٍ كما يلفظها الافرنج الآن